

مظاهر التأصيل السردى في رواية "وادي الظلام"
لعبد المالك مرتاض

أ.عبد القادر سرير/جامعة البليدة 2

يكاد يُجمع النقاد العرب أنّ الرواية جنس أدبي وُلد في الغرب، وترعرع في أكنافه واستوى سوقه في تربته، وأن كلّ ما أنجزه أسلافنا العرب من نصوص سردية لا يرقى إلى مستوى الرواية كما هي معروفة اليوم، انتقلت الرواية إلى عالمنا العربي عن طريق المثقفة مع الغرب، حيث راح الأدباء ينسجون نصوصهم الروائية على المنوال الجاهز الذي استوردوه من الآخر، إلا أنّ ثلّة من الكتاب العرب رفضت هذا التوجه المُقلد للغير، ورأت أنّه بإمكاننا أن نوظف القرآن الكريم، ونصوصنا السردية القديمة من أجل كتابة الرواية العربية الحديثة، مع الاستفادة من المعارف والعلوم الحديثة في مجالي الأدب والنقد؛ وسُمّي هذا الفعل بالتأصيل السردى.

يُعدّ الأستاذ عبد المالك مرتاض من الكتاب البارزين الذين سلكوا سبيل التأصيل - إبداعا ونقدا - وقد عضدته في ذلك ثقافته المزوجة أو المركبة، التراثية والغربية، فهو يكتب ويدعو - دون خوف ولا خجل - إلى العودة إلى تراثنا وتوظيفه في أعمالنا النقدية والإبداعية اليوم من وجهة، كما يدعو من وجهة أخرى إلى الاستفادة من كل المعارف والعلوم والتجارب التي أنجزها الدرس النقدي الغربي المعاصر " فالحدثات تتيح لنا أن ننال حظا وافرا من المعرفة العالمية الغنية، وذلك يُتيح لنا من جانبه الإسهام، ولو على هون، في بناء الحضارة الإنسانية"¹.

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

سنتطرق في بحثنا هذا إلى دراسة وتحليل رواية " وادي الظلام "، حيث نسعى إلى البحث والتقيب عن أهم مظاهر أو تجليات التأصيل في هذه المدونة، من حيث الشكل والمضمون على حد سواء .

أولا : ملخص رواية وادي الظلام

يتناول الكاتب في هذه المدونة الأحداث التي وقعت في تاريخ قبيلة "الجلولية" - التي ترمز إلى الجزائر - منذ احتلال فرنسا للجزائر إلى سنوات العشرينيات السوداء التي اكتوى بها الشعب الجزائري في تسعينيات القرن الماضي، حيث يضع الروائي القارئ في عالم سردي متخيل، ليس نسخة طبق الأصل للواقع، وذلك بتوظيف أسماء مُتخيلة للشخصيات، والأماكن، وإن كانت تحيل على الواقع في بعض جوانبه .

تتكفل الأم زينب (السارد الشاهد) برواية أو سرد حكاية قبيلة الجلولية، هذه الحكاية تحوي أحداثا ووقائع سمعتها عن جدّها، وأخرى عايشتها هي ذاتها، تمثل تلك الأحداث تاريخ " الجلولية " منذ أن دنس الاستعمار أرضنا الطاهرة إلى فترة الفتنة التي عاشتها أثناء العشرينيات السوداء من القرن الماضي.

تروي " الأم زينب " أن قبيلة " الجلولية " كانت معروفة بكثرة خيراتها، وغزارة إنتاجها الفلاحي، ووفرة أموالها، كما كانت مرهوبة الجانب أمام القبائل الأخرى المجاورة لها . حاكم القبيلة اسمه " الشيخ همدان "، كان مطاعا ومحترما، ومهابا لدى مواطنيه، لكنّه كان أميّا ، ولم تكن هذه الصفة منقصة فيه، لأنّ ميثاق المشيخة كان يفرض على من تحدّثه نفسه بتبوء هذا المنصب، أن يكون أميّا، مغلا في الأمية .

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

تسرد لنا " الأم زينب " قصة المعلم "أحمد"، الذي كان يلقبه الناس بالفيلسوف، لسداد رأيه، وسعة ثقافته، وكثرة قراءاته في مختلف العلوم، والفنون، والتخصصات، وتذكر لنا أنه كان أحد ضحايا الإجرام الإرهابي في فترة التسعينيات مرتين، مرة عند محاولة اغتياله، ومرة عندما اختطفت ابنته "عائشة" من طرف الجماعة الإرهابية، والتي استطاعت أن تتخلص من قبضتها في نهاية الرواية.

تذكر لنا الجدة " زينب " عن التحول الجذري والمفاجئ الذي اعتري المعلم "أحمد"، الذي قضى عشرين سنة بين جدران القسم، لكنه يقرر تطبيق مهنة التعليم والاشتغال بالتجارة محاكاة لأخيه " سلطان " التاجر ذي المكانة العالية في المجتمع، والنفوذ المتجذر في دواليب السلطة .

تحكي الساردة " الأم زينب " كذلك قصة نهاية الجماعة الإرهابية التي زرعت الرعب في المدينة، وأهلكت الحرث والنسل، وانتهكت الحرمات، بفضل اتحاد الرجال وحملهم السلاح، والزحف نحو معازل الإرهابيين، حيث ساعدوا الفتاة المختطفة عائشة - بنت المعلم أحمد - على النجاة من الموت والمحقق، وتمكنوا في آخر النص السردي من قتل وأسر أفراد المجموعة الإرهابية .

ثانيا: مظاهر التأصيل في الرواية :

تعددت مظاهر التأصيل في هذه المدونة، حيث شملت الشكل والمضمون معا، وتقوم هذه العملية على " الفهم المتجدد للتفكير الأدبي الغربي وأدواته، كما نجد فيها الفهم المستنير للتراث العربي القديم"² لكننا نقتصر على الإشارة إلى بعضها فقط، تماشيا مع طبيعة هذا البحث الذي تفرض علينا التركيز و الاختصار، واحترام عدد صفحات البحث .

أ - التأصيل في الشكل :

أهم ملمح من ملامح التأصيل الشكلي - في رأينا - لدى عبد المالك مرتاض يتجلى في البنية اللغوية، لأنه معروف باحتفائه الكبير باللغة العربية في كتاباته النقدية والإبداعية على حد سواء، لذا نجده يوظف ألفاظا جزلة، وتراكيب رصينة في هذه الرواية، مع مراعاة الجوانب الحداثية التي تفرضها السرديات اليوم، نتطرق في هذا العنصر توظيف النص القرآني، الحديث النبوي الشريف، والأمثال والحكم العربي.

1 - توظيف النص القرآني : لقد وظّف عبد المالك مرتاض القرآن توظيفا وافرا في هذه المدونة، ممّا أكسبها بهاءً في اللّغة وعمقا في الدلالة" لأنه يفيض بالصياغة الجديدة، والمعنى المبتكر، يصور تقلبات القلوب وخلجات النفوس"³ .

1-1 قال الله سبحانه وتعالى : " لو كان فيهما آلهة إلاّ الله، لفسدنا " سورة الأنبياء - الآية 22.

ورد هذا النص القرآني تاما دون زيادة أو نقصان، في معرض حديث السارد عن شيخ الحمودية الشيخ "رغبان"، الذي يُقال - حسب السارد - أنه كان أميا، مُوغلا في الأمية، ولكن مع ذلك كان يحفظ ذلك الشطر من الراية لأنها - حسب اعتقاده - يستطيع أن يتكأ عليها، لمواجهة خصومه السياسيين الذين كانوا يطمعون في أخذ منصبه، أو مشاركته في تسيير دواليب الحكم في قبيلة الحمودية. قال السارد : " وقد قيلَ إنّه أعنتَ نفسَه في حفظ آيةٍ واحدة من القرآن من أجل أن يُبينَ لأهل الحمودية أن لا أحدَ يجوز له أن يُشاركه الحكم فيها أبدا ... والآية هي قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلاّ الله، لفسدنا)⁴ .

2-1 قال سبحانه وتعالى : "والله خلقكم وما تعملون " سورة الصافات، الآية 96. جاءت هذه الآية على لسان القائد الإرهابي، عندما كان يخاطب جنوده ، حاثا إياهم على القيام بأعمال إرهابية جديدة " أراكم قد كسلتم في الأسابيع الأخيرة فلم تكادوا تفعلون شيئا ذا بال يا رجال، فمنذ تنفيذ حكم الله في الإمام الكافر ... ومنذ أن سرقتم فرقا من مواشي الشيخ رغبان لئلا نأكل منها حلالا...لم تكادوا تفعلوا شيئا كثيرا ... " والله خلقكم وما تعملون ".⁵ استشهد الأمير الإرهابي بهذا النص القرآني ليبرهن لجنوده، ويُقنعهم بأن ما يقترفونه من جرائم مُقدر عليهم، لأن الله - حسب عقيدته الفاسدة - إنَّما خلقهم ليرهبوا الناس، ويخطفوا نساءهم، ويقتلوا رجالهم، وينهبوا أرزاقهم.

2 - توظيف الحديث النبوي الشريف :

التناص مع الحديث النبوي ورد قليلا - في هذه المدونة - مقارنة مع القرآن الكريم، إذ لم تتجاوز المواضع التي وجدنا فيها هذا النوع من التناص العشرة، وسوف نتطرق إلى ثلاثة نماذج فقط .

أ - جاء في الصفحة العشرين :

" وعلى الرغم من أن تاريخ بدء أمر هذه القبيلة في هذا الوجه من الأرض غير معروف بدقة، ما المسؤول في ذلك بأعلم، في الحقيقة، من السائل . هذا النص يُذكرنا بمضمون الحديث الثاني من الأربعين النووية ، الذي جاء فيه ما يلي، عندما سأل جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن يوم القيامة، حيث قال : " قال : فأخبرني عن الساعة، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ... " ⁶.

ب - ورد في الصفحة الثمانين :

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

" فإنَّ قبيلة الجلولية تتميز بخاصيةٍ كادت تنفرد بها وحدها وهي حب الإنجاب، وكره العمل . كل عبقرية أهلها في ذلك . وكل امرئٌ مُيسرٍ لما خُلِق له " هذا النص يُحيلنا على الحديث النبوي الآتي: " عن علي بن أبي طالب، قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار، فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل...؟ فقال اعملوا، كلُّ مُيسرٍ لعمله " الحديث.⁷

إنَّ حضور هذه النصوص الحديثية في الخطاب الروائي لهذه المدونة، لم يأت اعتباطاً أو عبثاً، وإنما يوظفها الكاتب لتحقيق الأغراض الفنية والجمالية، كما هو الحال في التناص القرآني، فبفضل هذه التقنية السردية يكتشف القارئ بنية الشخصيات الداخلية (الأفكار، المستوى الثقافي، وغيرها)، كما يبين التناص المرجعية الثقافية والفكرية للكاتب، ففي هذه الحال تظهر بجلاء المرجعية الدينية للكاتب.

3 - التناص مع الأمثال والحكم :

تشكل منظومة الأمثال والحكم خزّانا ضخما من الثقافة الجماعية للأمة، فالمثل هو قول نافذ سائر يختصر مناسبة ضُرب فيها، ومن ثمَّ شاع تداوله وأدرك العفاء والنسيان قائله والمناسبة⁸ فهو يختصر التجارب والمعاناة والحوادث التي وقعت في حياة الشعوب، لذا شكّلت الأمثال معينا أو منجما لا ينضب يغترف منه الكثير من الأدباء وهم يكتبون أعمالهم الإبداعية، لأنهم يدركون أنَّ هذه الأمثال والحكم، تخدم نصوصهم الإبداعية أيما خدمة، وتحقق أغراضهم الجمالية والدلالية التي يسعون إلى تجسيدها في إبداعهم الأدبي.

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

برجعنا إلى مدونتنا، وجدنا أنّ الكاتب وظّف النصوص باللغة الفصحى، وكذا النصوص بالعامية دون تفضيل ولا تمييز بينهما، لإدراكه - ربّما - أنّ التجربة الإنسانية واحدة والإحساس بها واحد، وإنّ اختلفت لغة التعبير عنها.

أ - التناص مع الأمثال والحكم باللغة الفصحى :

***النموذج الثاني :** وظّف الكاتب مثلا آخر في الصفحة الرابعة والثلاثين بعد المئة، عندما كان المعلم أحمد يشكو غُبنه ومعاناته مع مهنة التعليم، ويطلب منه مساعدته لاحتراف مهنة التجارة، قال المعلم "أحمد" :

" أئىُّ غُبن هذا .إنّما العاجز وحده هم من يفعل ذلك ... وأنا مع ذلك أتفهم مشاعرك وأقدرها أيها السلطان الأكبر، ولكن لكل شيء حدود، وقد بلغ السيل الزبى، وقد بلغ الحزام الطيبين"⁹.

إنّ استعمال هذا المثل المتداول - نوعا ما - كشف بكل وضوح عن الحالة النفسية التي وصل إليها المعلم أحمد بعد حوالي عشرين سنة من العمل المتواصل والشاق مع التلاميذ الذين كان يزداد عددهم عاما بعد عام، فلم يعد يحتمل صراخ الأطفال، وغبار الطباشير، والوقوف الطويل على رجليه التي بدأت تطهر عليهما علامات الضعف والفتور .

* **النموذج الثالث :** ورد هذا المثل في ثنايا النصائح التي كان يقدمها التاجر " السلطان " لأخيه أحمد المعلم الذين كان مُصرّاً على ممارسة مهنة التجارة التي لم يمارسها من قبل، قال السلطان ناصحا ومحذرا، في الصفحة السابعة والثلاثين: " لا أريد أن تضيع منّي أموالى هُدرا بفشلك في المتاجرة .فما أكثر التجار المفلسين ، وليس كل من طَمَع إلى شيء حققه، وليس كل من مشى في الدرب وصل " ¹⁰.

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

لقد ساهم توظيف هذا المثل في تشكيل الخطاب الروائي ، حيث أبان - كما في النموذجين السابقين - عن جانب من جوانب البنية الداخلية للشخصية، حيث تبيّن للقارئ مدى حرص السلطان على المال، وكيف أنّه لم يشفع لأخيه المعلم أحمد كونه أخاه الأكبر أو كونه معلما، بل خاطبه بكل جرأة ووضوح: "لأريد أن تضيع أموالى...."، وحتى يُثبت له من الممكن أن يخسر في تجارته، وظّف المثل المشهور، وواضعا إيّاه أمام الحقيقة إلي يمكن أن تحدث في المستقبل، ألا وهي أنّه (المعلم) عليه أن يَرُدَّ المال الذي استلفه منه مهما كانت الظروف سواء ربح في تجارته أو خسر فيها.

نلاحظ في هذا النماذج الثلاثة أن الكاتب يُوظف في تقنية التناص الأمثال المعروفة والمتداولة على نطاق واسع، رُبّما ليُشرك أكبر عدد من القراء في بناء خطابه الروائي، لأنّ القارئ في هذه الحال عندما يقرأ هذه الأمثال المعروفة لديه يطمئن لها، ويشعر كأنّ الكاتب يحترمه ويقدره، لأنه يُوظف نصوصا تمثل عاملا مشتركا بينهما، فيدفعه ذلك إلى احتضان النص والحرص على قراءته والتفاعل الإيجابي معه .

إنّ فكل هذه الأمثال والحكم وظّفها الروائي، من أجل إثراء البنية الجمالية للنص الروائي، وهي تُمثل رافدا أساسيا وغنيا " لا يمكن الاستغناء عنه، لأنّها حاضرة دائما في الضمير والرؤية والوجدان والفكر والحساسية والمخيال، هي حاضرة دائما في أدبنا المعاصر على نحو مباشر كما هي حاضرة على نحو غير مباشر، وفي الحاليّن تُسهم في تغذية نصوص هذا الأدب وتموينها بالفكرة والإيقاع والدلالة والرمز".¹¹

ب - التأصيل في المضمون :

1 - توظيف التاريخ :

تُعدُّ الأحداث التاريخية من أهم العناصر التي يستخدمها أدباء التأصيل في أعمالهم الإبداعية، فالكاتب يستدعي وقائع محددة من تاريخ الأمة ليوظفها في تشكيل بنيته السردية توظيفا دلاليا وجماليا .

في هذه المدونة تطرق عبد المالك مرتاض إلى الأحداث التي صاحبت عملية احتلال الجزائر من طرف فرنسا، وذكر بعض التفاصيل التي تلك الفترة العصبية من تاريخنا، خاصة ما تعلق بتخاذل الحاكم العثماني للجزائر آنذاك، والذي وسمه في النص الروائي بـ " الشيخ حسونة " بدل اسمه الحقيقي وهو " الداوي حسين "، ربما انتقاما منه بسبب موقفه المخزي أمام المستعمر الفرنسي، ورد في الصفحة الثانية والخمسين من المدونة : " يقال إنّ الشيخ حسونة كان شيخا متخاذلا، ولم يكن في أصله، في الحقيقة، من قبيلة الجلولية، فكان لا يعنيه كثيرا أن يغزوها عدو لها، ويستولي عليها...لأنّه في نهاية الأمر يعود إلى قبيلته الأصلية فيترك الأمور حبلها على قاربها، وذلك ما فعل بعد وقوع احتلال الجلولية" .

بمثل هذا النموذج النصي يسعى الكاتب إلى استثمار الحدث التاريخي - بأسلوب فني - من أجل تمرير عدة رسائل للمتلقي، دون أن يلجأ إلى أسلوب الوعظ المباشر الذي لا يمكن أن يكون ضمن بنية النص الروائي، فالكاتب يريد أن يقول في ضوء هذا المقطع السردية : أن الأمة الجادة والفظنة، لا يمكن أن تُسلم مقاليد حكم البلاد إلى ناس أجانب، لأنهم لن يحموا البلاد ولا العباد من اعتداءات المحتلين، لأنها ليست بلادهم والشعب ليس شعبهم، ففي أول امتحان يهرون، ويدعون الوطن للمحتلين والغاصبين .

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

كما أورد الكاتب في هذه الرواية قضية خطيرة جدا وهي تواطؤ اليهود - الذين كانوا يقيمون بالجزائر آنذاك - مع العدو الفرنسي في أحداث الاحتلال، جاء في الصفحة الثالثة والخمسين :

" وكان اليهودي بكور ذا علاقة بسيدة قصر المحروسة، ففسّ لها ابنته أنيتا التي كانت تتقن العربية بالإضافة إلى اللغة الأصلية لامرأة الشيخ حسونة، وكانت لبقة ذكية بالإضافة إلى دهائها الذي كانت تتلقّاه من أبيها ... فكانت أنيتا تزور امرأة شيخ المحروسة يوميا تقريبا، فكانت تحادثها في أمور التزيين وكيف تجدد مشط شعرها ... وهي التي كانت تغريها بأن تفعل ما تفعل تنفيذا للخطة التي كان دبّرها أبوها، اليهودي بكور، لاحتلال الجلولية أصلا " ¹².

يتطرق عبد المالك مرتاض في هذا المقطع السردى إلى المكر، والخداع، والسلوك المشين الذي انتهجه اليهودي " بكور"، حيث أرسل ابنته إلى امرأة الحاكم العثماني، لكي تتجسس وتأتي بالأخبار، وتتطّلع على أسرار الدولة، لينقلها أبوها إلى القيادة الفرنسية لتسهيل عملية الاحتلال .

لكن الكاتب لم يستخدم الأسلوب الإخباري المباشر، لكنّه وظّف تلك الأحداث بأسلوب سردي راقٍ حيث يجعل القارئ يستوعب مكر وخداع اليهود بطريقة خفية، حيث تتسلل الأفكار، والرؤى السردية إلى ذهنه بسلاسة وإقناع، دون أن يجنح الأديب إلى المباشرة، والتصريح .

كما يسعى الكاتب إلى التنبيه إلى توظيف الجنس اللطيف في رسم خطط المكر، والاحتتيال التي يوظفها أعداء الأمة، ولقد تمّ ذلك بواسطة سرد الأحداث والوقائع التي شاركت فيها الشخصيات النسائية (زوجة الشيخ حسونة، أنيتا)، ولكنّه لا يقول ذلك بطريقة مباشرة، حتى لا يجد القارئ نفسه في مرتبة التلميذ

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

الذي لا يعرف شيئاً، ولا ينظر إلى الروائي نظرة المعلم الذي يعلم كل شيء، فيكون ذلك - ربّما - سببا في إعراضه عن إتمام قراءة النص كلّه بسبب الشعور بالخضوع للسيطرة المعرفية لصاحب النص.

2 - حضور الإرشاد والتوجيه في النص :

لا يخفى على المطلعين على النصوص السردية التراثية الحضور الكثيف لوظيفة الوعظ والإرشاد فيها، مثل المقامات، وقصص بخلاء الجاحظ وغيرهما "فهى مسوقة للموعظة والتزبية والتوجيه"¹³، لذا كانت هذه الخصوصية من أبرز مظاهر عملية التأصيل في النصوص السردية العربية المعاصرة، لكن هذه العملية لا تتم - كما أشرنا من قبل - بطريقة مباشرة، ومفضوحة، يسهل على القارئ التفتن لها، ومن ثمّ رفضها، والإعراض عن التفاعل الإيجابي من الرواية، لكنّ الكاتب التأصيلي يوظف التقنيات السردية الحديثة، مثل الحوار، والمناجاة والوصف وغيرها من التقنيات السردية الحديثة.

ورد في الصفحة الرابعة والخمسين بعد المائة ما يلي :

" نعم هم مساكين، في رأيك، أنت ترثين لحالهم . هم ضائعون، هم يتمسكون بقيم مغلوبة، لا تتحقق أبدا . يمكن للمصلح أن يهبط إلى المجتمع ليصلحه إن كان فاسدا، لا أن يعتزله من بعيد ليحاول إصلاحه بالإيذاء...شيء جميل الإصلاح لو يقع بالحوار والإصرار، وبالكلمة الطيبة داخل الجلولية، لا من هذه الغابة الموحشة، وبالنار وبالسلاح، وفي عزلة تامة عن الناس " ¹⁴.

في ضوء هذا الحوار الذي يدور بين السارد والبطلة " عائشة "، ندرك ببسر النزعة الوعظية والتوجيهية في هذه المدونة، حيث يبعث الكاتب رسائل إلى الشباب المُغرّر بهم، والذين ضلّوا طريق الحق والصواب، وانغمسوا في أتون العمل

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

الإرهابي، فبانحرافهم، وتطرفهم وانخراطهم في المجموعات الإرهابية، أساؤوا لأنفسهم أولاً، وأفسدوا البلاد، وظلموا العباد.

كما يسعى عبد المالك مرتاض إلى القارئ رسالة أخرى مفادها أن التغيير الحقيقي للأوضاع المتردية في البلاد، لا يتم بين يوم وليلة، كما لا يتم بتتحية حاكم وتتصيب آخر في مكانه، لكن عملية التغيير الجاد والإيجابي تتحقق على أرض الواقع بواسطة اعتماد تفكير عميق وخطة مدروسة، وخطوات متدرجة، ويكون ذلك بعد إجراء حوار صريح وجاد بين مختلف شرائح المجتمع، أما نهج طريق العنف، والإرهاب، والعزلة عن المجتمع وتكفيره، لن يؤدي إلا إلى الدمار والهلاك والخراب.

3 - خلو النص الروائي من العبارات الفاحشة، والإشارات الجنسية:

لقد صار شائعاً في أغلب النصوص السردية العربية المعاصرة حضور المقاطع الجنسية الفاضحة بشكل لافت، بل صار هذا الأمر - لدى بعض الكتاب - عاملاً جذباً للقارئ، وسبباً رئيساً في ارتفاع مبيعات الروايات " حيث انحصرت التجربة الأدبية في دائرة الواقعية في محيط التعبير عن السلوك الجنسي والصراع الطبقي"¹⁵. لكن دعاء التأصيل يرفضون هذا السلوك السردى المشين، ويدعون إلى كتابة نصوص سردية نظيفة ومحترمة، بعيداً عن كل أشكال العبث والسقوط الأخلاقي والابتذال، ولا غرو في ذلك ففي القصص القرآني خير مثال على هذا، حيث نقرأ في التنزيل - سورة يوسف مثلاً - آيات تطرقت إلى أحداث وقعت بين المرأة والرجل، ولكن بأسلوب سردي نظيف، وباستخدام ألفاظ راقية بعيدة كل البعد عن مظاهر الفحش، والابتذال، والانحطاط الخلقى كما نقرأه في بعض

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

الروايات العربية اليوم. جاء في الصفحة الأربعين بعد المائتين الحوار الذي دار بين البطلة " عائشة " والقائد الإرهابي : " الله، ما أعطر هذه اللحية، ثمّ تشمينها وتقبلينها، ما كان أشدّ حرمانني من الاستمتاع بلذة الرجولة ومتاع الملاطفة يا أمير. كأنني بتّ عاشقة يا هذا، ما أروعك، لكن بقي عليّ أن أهدب لحيتك بعد أن غسلتها، بمقصي هذا الصغير هو مقص النساء، لكنّه ينفع لشعر الرجال أيضا، كما ترى .

بعد ذلك سأحمم جسمك كله بالماء والصابون ... قبل بلوغ السعادة الكبرى...أنا لست كأنيّ من النساء، وأنت أيضا لست كأني من الرجال ...أم لست أمير الأمراء، ولا أريد أن يحدث الحدث الجميل بالسرعة التي تشبه فعل الحيوانات، فلماذا لا نهىئ لذلك أقصى ما نستطيع من الوسائل المتحضرة ..."¹⁶.

في هذا النموذج السردى يُورد الروائي الحوار العاطفي، والعاطفي الذي دار بين شخصية " عائشة " والأمير الإرهابي، حيث نقل للقارئ ما تبدلاه من عبارات الحب والتودد والتغازل، خاصة من طرف " عائشة"، التي كانت تسعى إلى التأثير على محاورها وإيهامه بأنه يحظى بحبها وأنها له لا لغيره، حتى يثق في مشاعرها إزائه، من أجل تنفيذ خطة هروبها من المعتقل الإرهابي .

وظّف عبد المالك مرتاض في هذا الحوار الحميمي الساخن الألفاظ الرقيقة، والغرامية التي يتمنى أن يسمعها كل رجل من امرأة، مثل " كأنني بت لك عاشقة"، " افعلي ما شئت يا أطف امرأة عرفتھا " وغيرها من عبارات الغزل والحب، والغرام. لكننا نلاحظ أن الكاتبة تحاشى استخدام الألفاظ الفاحشة، والخادشة للحياء، والعبارات السوقية التي تستنكف النفس السوية عن سماعها، وهذا السلوك في الكتابة والتعبير يُعد من أهم ملامح التأصيل الذي ينتهجه الروائيون الذين

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

يرفضون التوجه الساقط الذي يكتب به دعاة الحداثة، الذين يوظفون معجما فاحشا، وعاريا بدعوى سلوك منهج الإبداع، ومواكبة مقتضيات العصر، وتلبية رغبات القراء، واستجابة لمتطلبات النقد الحديث.

خاتمة :

يمكننا في نهاية هذا البحث أن نخرج بالاستنتاجات الآتية :

- الرواية جنس أدبي حديث ابتدعه الأدباء الغربيون .
- ولدت الرواية الغربية في سياقات لا تتوافق مع بيئتنا العربية .
- الرواية العربية المنسوخة على شكل الرواية الغربية لا تعكس الواقع العربي
- التأصيل الأدبي عملية حضارية تستفيد من الجديد، وتحافظ على التراث وتطوره .

- يشكل تراثنا الأدبي معيننا ثريا، ومصدرا لا ينضب من أجل إنجاز عملية التأصيل الأدبي.

الهوامش:

- 1 - عبد المالك مرتاض، مائة قضية .. وقضية، دار هومة، الجزائر، 2012، ص119.
- 2 - حبيب موني، فعل القراءة (النشأة و التحول)، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، الجزائر، 2002، ص 277.
- 3 . عفاف صيفي، وطار متأثرا بالقرآن، مقامات للنشر و التوزيع، ط2015، 1، ص، 75.
- 4 عبد المالك مرتاض، وادي الظلام، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران الجزائر، 20015، ص132.
- 5 عبد المالك مرتاض، م ن، ص 194.
- 6 حديث صحيح رواه الإمام البخاري في كتاب الإيمان، رقم 48..
- 7 - حديث صحيح رواه الإمام مسلم في كتاب القدر .

الملتقى الوطني الحركة الأدبية الجزائرية بين التأصيل والتجريب

- 8 - ميشال مراد، الأمثال العربية، دار المراد، بيروت، لبنان، ط2، 2011، ص.
- 9 - عبد المالك مرتاض، وادي الظلام، م س، 134.
- 10 - عبد المالك مرتاض، م س، ص 37.
- 11 - محمد صابر عبيد، تجلّي الخطاب النقدي، دار للإيمان، الرباط، المغرب، ط1، 2013، ص76.
- 12 - عبد المالك مرتاض، وادي الظلام، م س، ص 53.
- 13 - محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط6، 1983، صؤ 156.
- 14 - عبد المالك مرتاض، وادي الظلام، م س، ص 154.
- 15 - سيّد سيّد عبد الرازق، المنهج الإسلامي في النقد الأدبي، دار الفكر، دمشق، بيروت، ط1، 2002، ص141.
- 16 - عبد المالك مرتاض، وادي الظلام، م س، ص 240.